العدد 102 من ملحق جريدة "أوروك الأدبي" يحتفي بالأديب العراقي عبد الهادي سعدون

نخيل نيوز | العراق

احتفى العدد (102) من ملحق "أوروك الأدبي"، الجريدة المركزية لوزارة الثقافة والسياحة والآثار العراقية، بالأديب والأكاديمي العراقي عبد الهادي سعدون بنشر نصّه الموسوم "بلد متنقل"، مع نصوص أخرى من منجزه الإبداعي الذي تميَّز بخلطه السيرة الذاتية بالفانتازيا، وعشقه لعالم الكاتب الأرجنتيني بورخيس، كما كتب عنه ذلك الناقد طالب الرفاعي في استهلاله

النقدي.

كما ضم الملحق عدداً من الدراساتِ والمقالاتِ والنصوصِ والترجماتِ بأقلام نخبةٍ من الكُتّاب والمفكّرين والشعراء والمترجمين، ومنهم الناقد سعيد الغانمي الذي كتب مقالاً عن "الكنز والدفن والنفق"، وخصّ الشاعر أديب كمال الدين الملحق بنصوص "مواقف الروح والحلم والخوف والعزّة" ،وترجم حيدر الكعبي فصلاً من رائعة الشاعر ناظم حكمت "ملحمة الشيخ بدر الدين"، وكانت دراسة الكاتب أسامة غانم بعنوان "قراءة في رواية الحيوان وأنا" للقاص أمجد توفيق، وكتب طالب عمران المعموري عن "الغموض اللغوي وأبعاده الدلالية في نصوص الشاعر جبّار الكوّاز"

كما تزيَّن العدد بتخطيطات الفنان التشكيلي صاحب أحمد، فيما كان غاليري الأخيرة مُخصّصاً للفنانة التشكيلية نبراس هاشم .

غاليري أوروك

uruk2020@yahoo.com

أوروك الأدبي URUK

نبراس هاشم

سيرة مضيئة

* مواليد بغداد ١٩٧٥
* دبلوم معهد الفنون الجميله / تصميم
* بكلوريوس كليه الفنون الجميله / رسم
* بكلوريوس فنون جميله / نحت
* ماجستير طرائق تدريس
* ماجستير فنون جميله / نحت
* ادرج اسمي ضمن اهم فناني العالم عام ٢٠١٤ في مدينة الفن في باريس
* المعرض الشخصي الاول ١٩٩٦
* المعرض الشخصي الثاني بغداد ٢٠٠٨
* المعرض الشخصي الثالث عمان ٢٠١٣
* المعرض الشخصي الرابع المعهد الثقافي الفرنسي - بغداد ٢٠١٤
* المعرض الشخصي الخامس باريس ٢٠١٤
* المعرض السادس تركيبي مفاهيمي مشترك مع الفنانة زينا سالم (قرابين) ٢٠١٥
* المعرض الشخصي السابع لاطفال مرضى السرطان ٢٠١٦
* المعرض الثامن للوحات ثورة تشرين في المعهد الثقافي الفرنسي ٢٠١٩
* المعرض التاسع (مفردات نبراس هاشم) قاعة برونز ٢٠٢٢
* المعرض العاشر مزدوج بين قصر الثقافة و رابطة وجدان الثقافية / نفحة رافدينيه في تونس / تونس ٢٠٢٢
* معرض ألق للفنانين المتميزين في بابل المنطقة الاثريه ٢٠٢٢
* معرض فلسطين وزارة الثقافه ٢٠٢٤
* أكثر من ١٢٠ من المعارض المشاركة داخل وخارج القطر منذ عام ١٩٩٦
* اقامت عدة ورش فنيه تشكيلية تثقيفية في عدة مناطق في العراق
* مدربة فنون جميلة والتعامل مع الخامات المختلفه ضمن الأعمال الفنية
* تدريسية حاليا في معهد الفنون الجميلة.

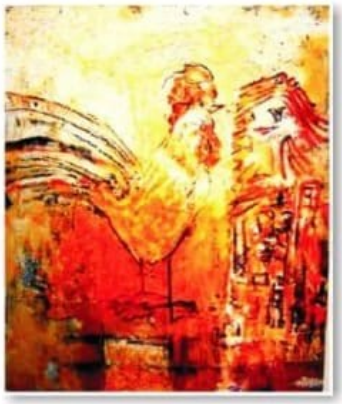

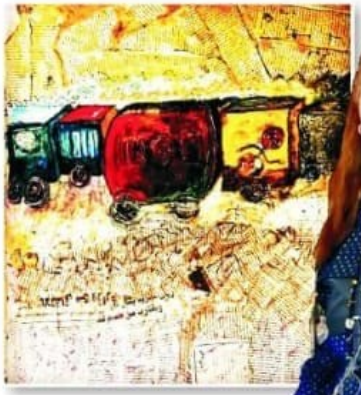

www.palms-news.com

نخيل نيوز

أوروك الأدبي
URUK
العدد (102) الإثنين 26 آذار 2024
نصوص 13
Uruk2021@yahoo.com

عبدالهادي سعدون، يكتب بطريقة لا تشبه إلا نفسها، فهو يخلط بين السيرة الذاتية والفانتازيا، وبحضور الواقع بوصفه الأرضية التي يتحرك عليها هو وسيرته وفانتازيته وحقيقة عيشه. (..) وأنا أقرأ قصصه أجدني أشير بوضوح إلى أن هذه القصص تحمل بصمة خاصة بصاحبها. تجمع بين كتابة السيرة الذاتية وكتابة الفنتازيا والواقعية. وأن ما يميّزه هو قدرته على أن يجعل كل قصة تلد تاليتها، و بلغة شاعرية فاتنة أقل ما يمكن أن يُقال عنها (السهل الممتنع)، وهذا التوصيف يشمل كل قصص المجموعة بلا استثناء. وأخيراً لابدَّ من القول أن كتابات عبدالهادي سعدون ومثلما تقدم بصمته الخاصة فإنها تشير صراحة الى عشقه لعالم الإرجنتيني بورخيس، وأظن أنه طالبٌ نجيب لمعلم عظيم.

طالب الرفاعي

بلد متنقل

ومختارات أخرى من المنجز الإبداعي للكاتب الكبير د. عبدالهادي سعدون

بلد متنقل

احتفظت بروايةٍ كتبتها منذ فترة طويلة ولم أكملها لأسباب عديدة لا أتذكرها الآن أو على الأقل لا تعنيكم أسبابها، أسميتها "بلد متنقل". ليس فيها شيء خارق أو شخصية لا مثيل لها، فقد كتبتها في شهر واحد وأنا في حمى تزيف دموي في الأنف يتوقف لساعات ليعاود جريانه من جديد. بالطبع لا يهمكم لماذا سأعيب بعدم إكمال الرواية لتزيف الأنف المفاجئ، فأحدنا يكتب بالبد او بالقدم على حروف الكمبيوتر بأيدٍ كتلك، ولكنني لاستخدم هذه الحيلة بمثابة مؤثر على الرأس الذي لا يستطيع التفكير بشيئين في آن واحد، وحينها كنت مشغولاً بطريقة لايقاف النزف المرعب، ولما لم أفلح توقفت عن كتابة الرواية، فتوقف النزف. أعدت المحاولة فعاودني نزيفي، فوجدت من غير المجدي الاستمرار بكتابتها، وأقنعت نفسي بذلك، ولكنني بعد ذلك أبتكرت متعة الحديث عن الرواية غير المكتملة، أضيف لها هذا وأنقص لها من هناك، أحياناً أتطاول على ما يصلني من أفكار جديدة لقراءاتي روايات أو كتب تعنيها النفسي فأدمجها في متن الرواية بمثابة فكرتي وأسلوبي وشخصياتي. كما لم أفتر عن سرد وقائعها على الجميع، مثلما أفعل الآن، لعلها فرصة لمداراة فشلي في إتمامها، أو ليحث عن سبب توقفي عن كتابتها مثلما عليه توقفي منذ فترة بعيدة عن كتابة أي شيء ولو مقال صحفي تافه لجريدة تافهة لا يهتم بقراءته أحد. الحقيقة في كل هذه التفاصيل ان التي لم يعد للتزف أبداً، وطرأت عليه تحولات غريبة فقد تصاغر إلى درجة مثالية ولم يعد ضخماً متطاولاً شبيهاً بالمنقار، والذي ما ان تتلقى براءة حتى تعرف من الوهلة الأولى بأنك عربي فتبتعد صائحة على أسنانها "خووووج"، كما أن حاسة شمه اتسعت وقويت، وأنا الذي كنت أفتقد لها طوال حياتي. ليس في الأمر حيلة ولا سبب معين، فهذا وضعي ووضع أنفي، ومع ذلك فهذه قصة أخرى ليس لها علاقة برواييتي الناقصة التي أفتك عنها (للذين يشككون بوجود الرواية فليراجعوا المخطوطة في المكتبة العربية في مدريد تحت رقم: (Manuscrito/Pa?s 138/Port?til)

روايتي غير المكتملة (بلد متنقل) أسرد فيها وقائع شاب ترك بلده وهي تجهز نفسها لحرب جديدة، ولكنه في خوفه الدائم لا يرغب حتى في فتح تواصل مع أهله بعضي أيامه وكأنه سأمر في نومه لا ينوي على شيء سوى متعة الانتظار الطويل بلا أمل. أثناء تجواله في أحد الأسواق الشعبية يتفاجأ بأحد الفقير ينادي عليه ويدعوه للدخول في دكانه. كان الدكان بمثابة أسطبل حقيقي هجرته الخيول، في وسطه طاولة تضم عليه عديدة بألوان وأحجام مختلفة. يختار له من بينها صندوقاً أخضر بـــلا أية علامة خاصة، وعندما يلتفت من الدعوة والصندوق، يغير الفقير بأنها حاجته التي جاء من أجلها، ويضيف: " لا تستغرب يا ابن العم، فكثيرا ما أرى غيابك لا تهوت بها، ولكنها تكاد تعلن عن نفسها ما أن تغترب منها. هذه هي هديتك افعل بها ما تشاء". لا يدعه الفقير الذي يناديه بابن العم أن يرفض الهدية أو أن يتســـاءل عن تفاصيل كل هذه اللعبة، فظل يحدثه عن معاناته مع الزبائن المولعين وسط صراخ البـــاعة الآخرين وعياط أطفاله وتعيب زوجته التي جرته أخيراً من بقية قميصه ليأتي ويساعده بتهوية غرف الأسطبل لأن أبخا لهما قد شمط بثيابه وزكم الأنوف برائحته لأن الشاب قد أصبح أمام حقيقة حاجته التي يعرفها الفقير أفضل منه. كما أخبره بـــأنك في الصفحة ٣٠ من الرواية، والصفحة بحجم ورقة فلسكوب قياس ٤ دي. يقرر حملها والابتعاد عن أسطبل ابن العم قبل أن تجتاحه رواح أخرى غير معرفة. في شقته وسط المدينة يجازف ويفتح العلبة ليعرف ما بها. أحيان كثيرة تنصرف عكس ما ترغب، ربما هو الفضول أو الرغبة الحقيقية التي لا تقر بها، أغلب المرات بناء على ما يخططه الكاتب بطبيعة الحال. إزاء دهشته، يجد نفسه أمام هاتف متنقل (متلم من يسميه موبايل، خلوي أو محمول إلى آخر المسميات المبتكرة التي تجتاحنا بفضل اتساع الخيال وفقر الثقة بإيجاد البديل المناسب). مع الهاتف كتيب تعليمات عن كيفية تشغيله مع تحذير بسيط يخلك المسؤول الوحيد عنه بعد ذلك وأن لا مجال للتراجع بعد الموافقة. الهاتف كما يعرف الجميع (واللعنة على التكنولوجيا المتطورة) ينقلك برمشة عين للوصول إلى أي بلد ترغبه. هاتف الفجري له خط وحيد وصوت بمثابة مطقة ناشفة ولكن متطاولة، حذره بطل الرواية ما ان نطق أحـــدهم من جهة ما (نفضل أخي، معك بغداد.)!

لعل من السذاجة وصف تفاصيل فصول الرواية ومعاناة البطل (فكما قلت لمن له رغبة متابعة فصول الرواية وتطورها، فما عليه سوى استعارتها من المكتبة) لأنه بعد اكتشافه رنة الهاتف لم يعد يهنأ بنوم او وقت فراغ او حتى ونو استراحة في أي مقهى او زاوية من زوايا المدينة. سيعرف ان الهاتف لا ينطق أو يفلس كما أن لا زرّ له القدرة السحرية بإيقاف الآخرين من الحديث الطويل الذي ستضح به شقته لينتقل الزعر للبناية والشـــوارع المجاورة، فما كان من الجيران الا ان تذمروا وغادروا الحي من ضجيج لا يعرفون له سبباً. في صباح يوم آخر وهو جالس عند زاوية مقهى (من المفترض ان يكون فصلاً جديداً، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنني لم أتوقف عند فصل أعواء ابنة الفجري المتلهية لصاحبتها) سيقترب منه شخص يبدو غريباً عن المدينة يطلب منه بلهجة واثقة وان بدت له مبهمة بأن يساعده بحمل أغراضه فالجميع في الانتظار. قبل ان يصل شقته هارباً من الحشود ناعمة الوجوه، سيجد أكثر من واحد في انتظاره. عندما يحاول البحث عن الهاتف سيعثر على الإجابة: الآخرون انتقلوا عبر قوة الهاتف من بغداد إلى مدريد. في البدء الأحجار الصغيرة، ثم الثياب فالأصابع فالشعر فالوجوه المعروفة والأجساد والأعراض، ولم يتسوا بالطبع الذكريات الثقيلة، اللزجة، التي توقفي عن الكتابة لا يدعني أتذكر ما خططت له كنهاية للرواية، ولم تعد تهمني طالما أصبحت من انسياني العاطفية، كما لا أفكر حقاً بالعودة لمراجعة مخطوطتها للشروع بكتابة ما يقلصها. ليس لي قدرة خارقة على رتق ما لم تستطع خياطته، فالحلول السحرية ليست من قدراتي الشخصية، على الأقل في الكتابة. وكذا عنيت تقبلها كما اسردها لك. الشيء الوحيد الذي أستطيع اضافته هنا هو أنني ومنذ فترة بدأت تتنابني تغيرات عديدة لا أجد لها تفسيراً. طبيبي الخاص بقي منشغلاً بحكاية نزيف الأنف الذي توقف بلا سبب. وتحولاته الجمالية، عن سماع ما يصادفني. ولكن طبيبي ليس الوحيد في هذا، فطبيبتي تركتني تظن بي بداية جنون أو حيلة مني للهرب أو لأنني لم أعد قادراً على تهييج جمر ثثوراها. صاحب العمل تعذر بالريح القليل ليطردني لأصبح رقماً اضافياً في قائمة العاطلين. بينما أصدقائي القليلون في المدينة لم يعودوا راغبين بروييتي في كل مرة وأنا أعدثهم عما أضافه يومياً في تجوالي في مدريد. ذلك أنني بدأت أرى وجوهاً تركتها منذ زمن طويل في بغداد، مقاهي تغيرت وأجهتها وشوارع المحت أسماءها الثالثية لتتسمى بأسماء عربية اعرفها عن ظهر قلب في المرة الأخيرة وأنا وسط بوابة الشمس في مدريد بحثاً عن الشمس أو ما يشبهها، ما أن رمشت بعيني طرداً للغبار، مثلاً، وفتحتهما ثانية، حتى رأيت واجهة البندية تتغير معالمها وتختفي ألوانها وأعلامها وزخرفتها الهندسية التي تعود للقرن الثامن عشر وتحل محلها ما يشبه طاولة حجرية عملاقة كتب تحتها على قطعة من الحديد: نصب الحرية.

خرجت بما يشبه الطلق لتنفجر وتتمدد ماسحة بيد نزقة زوايا المدينة.

بما يشبه الهرب او الخوف او مجرد الابتعاد عن كل ما يحدث من تغيرات في مدريد، وانني بدأ أتسها وبذاتها تذكره بما تركه خلفه منذ سنين، فكان أن خطف الهاتف وركض ليعيده للفجري. بحث عنه في دكاكين السوق ولم يجده. حاول التخلص من الهاتف بلا جدوى، بيعه، تحطيمه أو أي نعية فنية من تلك التي تذكر فيها في أية قصة عندما تعينا الحلول الواقعية عن إيجاد بديل، ولأنني نعرضت قبلها بأيام (أثناء كتابتي لرواية) لسرقة هاتفي الشخصي من جيب الجاكيت في محطة مترو الأتقاق، فكرت انه حل مناسب لمأزق بطل الرواية، وهو أن يضيع الهاتف بوسيلة مشابهة. فكان أن سرقه غجري آخر (في حالتي سرقه مغربي دون أن يرمش له جفن) لم يلمح منه سوى خصلة جديلته المتزجرجة وهو يهرب. قبل أن أتوقف عن اكمال فصول الرواية بسبب نزيف أنفي، كان البطل قد وصل لان يجد نفسه من جديد في بغداد يشوار عنها وناسها وقنوطها الذي لا يشبهه حزن آخر في العالم. لقد انتقل عالمه إلى مدريد، ولم يعد أمامه من حل سوى إيجاد وسيلة للهرب مجدداً، فتركته يبحث في الأسواق عن جواز سفر مزيف يشتريه ليهرب عن طريق الشمال لأي بلد يقبل به لاجئاً.

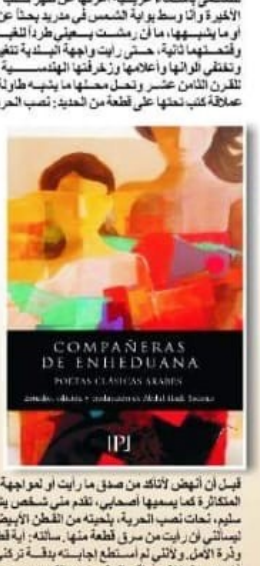

قبل أن أنهش لأتأكد من صدق ما رأيت او لمواجهة أشباحي المتكاثرة كما يسميها أصحابي، تقدم مني شخص يشبه جواد سليم، تحدث نصب الحرية، بلحيته من القطن الأبيض المنقط ليسألني أن رأيت من سرق قطعة منها، سألته: أية قطعة. قال: ذرة الأمل. ولأنني لم أستطع اجابته بدقة تركني لبسأل آخرين، بينما كنت أراقب الجنود تحت النصب يحرجون حجراً ضخماً ويتركونه في منتصف الساحة ليأتي بعد حين سكير ويجلس عليه بمثابة كرسي (لقطة سينمائية محبكة كانت قد رأيتها أو قرأتها او قصها على أحد هم سابقاً) فيزوع أحشاءه في عتبة تلك مزنجرة ثم يتجشأ بصوت عال كأنه منبه سيارة لا مجال لتفادي مسرعتها حتى لو أغمضت عينيك. كما فعلت لحظتها. وكأنها المرة الأخيرة التي تجرب فيها لسعة الحياة.

مأتم عراقي

مات منذ سنتين رجل عراقي في مدريد. كنت قد سمعت بالخبر وأنا في محل طارق (عراقي آخر) في وسط المدينة، عندما مررت للسلام وشراء أغراض من محله لصديقتي الاسبانية التي اكتشفت أن محل طارق لبيع الجملة، يبيع بضائعه بنصف سعرها في المحلات الأخرى. قلت ما أن تتذكر شيئاً حتى تبعث بي. كنت أغلب المرات أرفض بشدة بعد أن قطعت علاقاتي بالعراقيين وأخبار العراق. لم يعد هناك ما يهمني في بلدي، لا صديق ولا أهل، فهل أحسن إلى تراب معفر بالدم والبارود فارقته منذ أكثر من عشرين عاماً بالطبع كل أعذاري لا تقنع صديقتي، وعدم ارضائها، يعني ما يعنيه، حرمان من الفراش وزعل لا أول له ولا آخر قد ينتهي بطردي من جنتها، وهذا يعني شهور حرمان طويلة حتى أعثر على من ترضى برفقتي. لذا تعلمت أخيراً ألا أناقش طلباتها وأمضي مثل خروف مقاد من حبله حتى منصة ذبحه. لا تقلقوا أنني أبالغ في الوصف، فالحقيقة أن التعذيب أفضل لي من الوصول بقدمي حتى محل طارق.

الواقع أن المعضلة ليست في طارق ولا في الآخرين، فأنا أعترف أنني لم أعد أطيق لغو الآخرين، خاصة أبناء بلدي. ما أن يرونني حتى يبدأون بفتق خاصرتهم الحكائية ويرمونني بكل ما عرفوه وسمعوه وقرأوه أو شاهدوه. مرة اعترفت أمام مجموعة من العراقيين التي لا يهمني سماع أي شيء عن البلاد، كما أنني لا أتابع ما يدور في العراق. فقد لبست التلفزيون منذ فترة طويلة، ليست القنوات العراقية والعربية على السالاليت، بل جهاز التلفزيون نفسه لم أعد أقترب منه في بيت صديقتي وكنت قد تخلصت منه ومن الراديو في غرفتي المتواضعة التي استأجرتها مع عمانة تايلندية لا أفقه منهم حرفاً ولا هم يفهمون بوجودي سوى في يوم دفع الإيجار الشهري. ولكن أن تعترف لهم، كنت أتصور أنهم سيعتقونني ويركون عدم اهتمامي بكل هذا. لكن الحال العكس وبدت ما أن التقي بأحدهم حتى يفاجئني بكل تفاصيل الشهور الماضية، مفصلاً رأيه وما سمعه وقرأه وشاهده. كل واحد منهم (لا يعطي فائدة) كما يقال عادة، أي لا يمنح منتفساً للتساؤل أو إبداء الرأي أو الهروب حتى.

لأكن صادقاً في وصف لقائي الأخير هذا بطارق. لم أره على عهده، كما كان منشغلاً بمكالمة هاتفية مع شخص عراقي آخر من اللهجة التي كان يتكلم بها، ثم بدا حزينا وساهماً. ما أن انتهى حتى رأيته يسلم على بعجالة ثم يأمر عماله ببعض الأشغال ويخبرهم أنه سيغيب حتى العصر لأنه سيمضي خارج مدريد، مضيفاً أنه سيحضر عملية دفن عراقي في مقبرة البلدية. وقبل أن يخرج نادائي (هي ساعتين ونلف، ومن الله الثواب)، قلت له ولكن من هو هذا العراقي، أنا لا أعرفه؟ وقف بوجهي وقال: الله يخليك يا صديقي، هو الموت له صاحب.. كلها ساعتين تؤدي الواجب وترجع، لا تقل لي عندك شغل، ترى اعرف سوالفك؟!.

لم تفد احتجاجاتي ولا قسمي بأن صديقتي تنتظرني في البيت، فكان أن أسكتني من يدي ومشى بي حتى سيارته، هناك وجدت سيارات أخرى لعراقيين ينتظرونه، دفعني لأرافقه في سيارته، شغل كاسيت قرآن ولم يسمح لي بأي تساؤل سوى التنصت والاستماع لصوت عبدالباسط عبدالصمد وهو يتلو سورة يوسف الذي أكله الذئب ظناً أو حقيقة.

أفضل شيء في الموت، أو عملية المشاركة في الدفن هذه، التي لم أسمع أي كلام ولا تعليقات ولا تساؤلات من طارق ولا من أي عراقي آخر سلم عليّ قبل أن يمضوا بسيارتهم الشخصية على أمل أن تلتقي جميعنا في منذل مقبرة (المودينا) المدريدية.

عندما وصلنا بعد أكثر من ساعة، طلب مني طارق أن أنزل وانتظره قرب الاستعلامات حتى يركن السيارة في الكراج الخاص بالسيارات. جلست عند ذكة قرب شجرة كانت بمثابة علامة للمدخل، دخنت سيكاراً أحمله معي عندما أخرج كي أعاقب نفسي بعدم تدخين القليون الذي لا يليق من قمي. حاولت التفكير طوال الوقت بمن يكون هذا العراقي، وحاولت مع نفسي أن أصنع له تاريخاً طالما أن طارق لم يحدثني عنه، كما أن تساؤلي عنه لم يحظ بأي اجابة سوى أنه عراقي وصل قبل أشهر عن طريق المغرب في قوارب الموت، الذي أهداه موتاً مؤكداً، لأنه مرض فجأة ما أن حطت قدماه أرضاً إسبانية ولم يجدوا علاجاً له، وأشاروا في أوراق وفاته بأنه أصيب بذبحة تشنج غريبة لم يألفوا مثلها اطلاقاً، سيبت له تخشيباً جسدياً وتخطيطاً دون العثور على أية مواد غريبة في معدته. مات وحيداً في غرفة في مستشفى مدريدي. أخبرني أيضاً أن الوحيد الذي صلى على روحه، قس عجوز كان هناك بالمصادفة وظنه مسيحياً، بيد أن المعرفة أخيرت القس

نخيل نيوز

بأن الرجل عراقي ومسلم أيضاً، لكن القس كما حكوا لهم (قصد لطارق نقلاً عن آخرين، وبدوره أخبرني بذلك) لم يجب المعرضة بشيء، بل هز رأسه وبقي بصلاته خاشعاً الخمس دقائق قبل أن يريت على صدر العراقي ويمضي خارجاً.

طال انتظاري ولم المح المرأة طارق ولا أي عراقي آخر. فكرت ان امضي للبحث عنه في الكراج، وتخلّي بستجواني فيه لم ار أياً منهم ولا عثرت على سيارة واحدة تهم، فكان ان عدت من جديد لمدخل المقبرة وقررت الانتظار خمس دقائق. لم يات احد، فكرت ان أعود للبيت وحدي ولكن موقف الاستعلامات في المقبرة أخبرني انه على المشي لربع ساعة او اكثر حتى اقرب محطة وحيدة، وهناك علي ان انتظر باص المساء. قررت اذا الدخول والبحث عنهم في المقبرة، طالبت معلومات من الموظف، وعندما دقق اوراق دفتر (واردات الموت لهذا اليوم) اشار الى الجهة المقصودة وترك بيدي مخططاً بإشارات واسهم ليساعدني الوصول في السليم لهدفي ودون ضياع في عالم القبور المترامية.

كاي تلميذ نجيب اتبعت تعليمات الخريطة حتى وصلت النقطة المشار لها، وهناك عثرت على الجمع الذي قلق اكثر من مائة شخص. فتريت وجدت حركتي احترامياً لطقوس الموت، ولكن من زاوية متاحة لي حاولت تصفح الوجوه المحيطة بي لارى اين يكون طارق او أي من العراقيين الآخرين. ولكن زاويتي كانت ضيقة لم تتح لي سوى متابعة حركات الدفان وتأوهات الأقرب مني. كانت تلك بسين حسين واخر تنهدات نسوية مما جعلني بشك من انني عند قبر العراقي لانني لم اعلم بحضور امرأة معاً. خمنت انها لا بد وان تكون زوجته او ابنته او امرأة احد هم. لكن مكاني في الخلف وعدم قدرتي على رؤية الوجوه والتمعن بها جعلاني خائساً في مكاني. ركزت كل طاقتي على التقاط من حركات الدفان والتوصل لمعرفة اي أية مرحلة من الطقوس قد وصل. لم يكن لي من مخرج حتى الانتهاء من العاتم كاملاً لكي استطيع العثور على طارق ومرافقته في العودة. في الوقت نفسه كنت اشعر بحضور آخرين من الخلف، بعضهم يقف ابعد مني بمتر او اقل. بدريكات واصوات متذأرة سمعت صوت رجل يأمرنا بالخشوع وبدات صلاته مردداً جمله الاولى بتالاتينية وبعد لحظة صمت اخرى سمعته يردد صلات مريم العذراء والجمع من ورائه. في تلك اللحظة وحسب عرفت انني لم اكن عند النقطة الصائبة، والقبر الذي انا بقربه ليس بقبر العراقي، والجمع المحيط بي لا يعرفون عن العراق اكثر من معرفتهم بالعربية.

حسبت وانا اتابع العملية كاملة متأملاً العثور على فرصة للتراجع والهرب، ولكنني بعد فترة التقت لارقب عملية السملاني بأنني في الواقع كنت وسط الحشد تماماً ولا مجال للخروج دون ان اضايق الجميع واثير انتباههم، فقررت الاستمرار حتى النهاية. مع مرور الوقت كنت اشعر بتداقع الناس من خلفي وكلهم يرغب بالاقتراب اكثر، بينما آخرون قد اتخذوا مكاناً قصياً لهم وصعدوا مثلي في انتظار الدفن. بينما كانت اتابع ما اعتقدت انها حركات الدفان او احد مساعديه، سمعت من ناحية كتفي الأيمن احد هم يقول (البقاء لله)، صاح بها باعلى صوته باسبانية لا غبار عليها. بعد صمت لفترة، اعاد الرجل جملته بصوت اعلى. حينذاك التفت لارى وجه صاحب الجملة، لم أتعرف عليه. بعد حين صرخ بصوت اعتقدت انه قد خرج من مكبرة صوت لان الجميع قد التفت اما لبرى مصدر الصوت او ليوثبوه بالنظرة الصارمة. حينذاك وحسب لمحت اكثر الوجوه الحزينة ولم اعرف اي واحد منهم. لكن بعد ذلك لم يعد الرجل الذي على يميني إلى الصراخ بل خلع قربي حتى أنني تو كنت في موقف آخر كنت سأظن بانه يرغب باحتضاني.

بصوت أقرب للهمس سألني: رجاء، هل هذا مأتم السيد تشيمو؟

قلت له: الحقيقة انني لا اعرف اسمه، ولكنني لا اعتقد بان اسمه تشيمو فقد سمعت القس يردد اسماً آخر.

زفر الرجل في أذني وخرجت كلماته ممطوطة: يا للكارثة!

-عذراً؟

-لا شيء، فقط لعن ساعة حضوري. هذا هو المأتم الثالث الذي أحضره، دون نجاح بأن أصل لغايتي. لا بد انهم قد دفنوا السيد تشيمو منذ فترة طويلة، اعتقد انني أخطات بموعيني وحدي.

طمأنته قائلاً: لا تظن انك الوحيد، انا كذلك هنا بالخطأ، جئت لحضور دفن رجل عراقي ويبدو أنني في مأتم آخر ليس لي علاقة به!

-اه انت واحد منهم... رأيت أصحابك قبل ربع ساعة، هناك في الجانب الاخر وشاركتهم الدفن.

-اذاً انتهوا من الدفن؟

-اعتقد ذلك.. هل تريد أن أقودك لغيره، اعرف الطريق؟

-لا.. لا اعتقد انني ارغب بذلك، سأستمر مع هذا الميت الذي لا اعرفه.

ثم مكثنا. ذكرت ان الرجل الذي على يميني سيتركني وبمضي بحاله، لكنه بقي صامتاً جوار ي. سمعت من الوسط صلوات القس ودعاءه ووصل لسمعي تنهدات وتحيب بالبكاء يتعالى شيئاً فشيئاً، ولا انني شعرت برجل جواري يدفعني للامام والحشد الذي من خلفنا يتحرك باتجاه القبر. مضيت معهم بصف نسير كرتل عسكري. ما ان وصلت حتى وجدتني قرب النعش الممدد في الحفرة والمغطى ببعض الأزهار وحفنات تراب منهارة فوقه. بحركة لا ارادية انحنيت وقبضت على حفنة تراب ورميت بها على الصندوق وبقيت للحظة مراقباً الخشب اللامع للنعش واستمت نظراتي للصف المقابل الذي انتشح بالسواد وتميزت من بينهم المرأة التي اعتقدت انها كانت تبكي منذ لحظات لانها كانت تر فيني بعينين دامعتين ومنديلها بيدها. شعرت بكلمة تقلبي ولم استطع السيطرة على قدمي لكي انهض فساعدني الرجل الذي جاء من خلفي. تلذمت وقبلت السيدة واحتضنت البقية ومشيت بعيداً عنهم لاتاني في تلك اللحظة وحسب شرقت بغصة لم اتوقعها وبدات الدموع تتهمر على وجهي دون ان يكون لي قوة على كظمها ولا معرفة تعليل لها. بينما كان هواء المقبرة يلطم وجهي مجففاً دموعي، كانت فضاءي قد جابت القبور كلها قبل ان تجد طريق الخروج والمضي مشياً حتى اقرب محطة باص والهرب من هناك.

ما ان وصلت البيت (بيت صديقتي وليس غرفتي في الدار التايلندي)، وقبل ان اسمع لنهاتها التي ستجرني للفراش كعادتها، او تساولها عن البضاعة التي ارسلتني لشرائها، دخلت الصالة واغلقت بابها على وتمددت في الأريكة ورحت في نوم عميق لم احس فيه على اي صوت. نهضت مع الفجر، لم يكن خيط ضوء قد بان بعد. دخلت وشربت قدح قهوة. لم يكن لي قدرة على متابعة أية فكرة، فرحت انتظر متابعاً السماء من النافذة وهي تبدل الوانها كحرباء في صحراء. بعد قليل فتحت جهاز الكمبيوتر لاتلهى بتصفح الانترنيت قليلاً

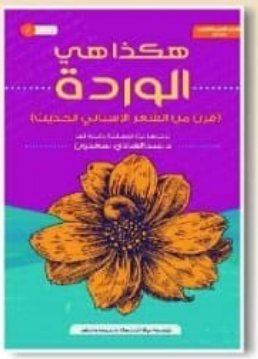

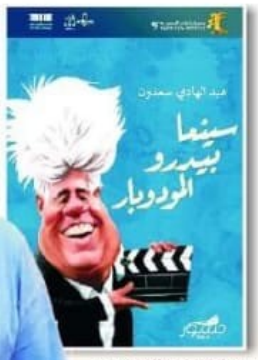

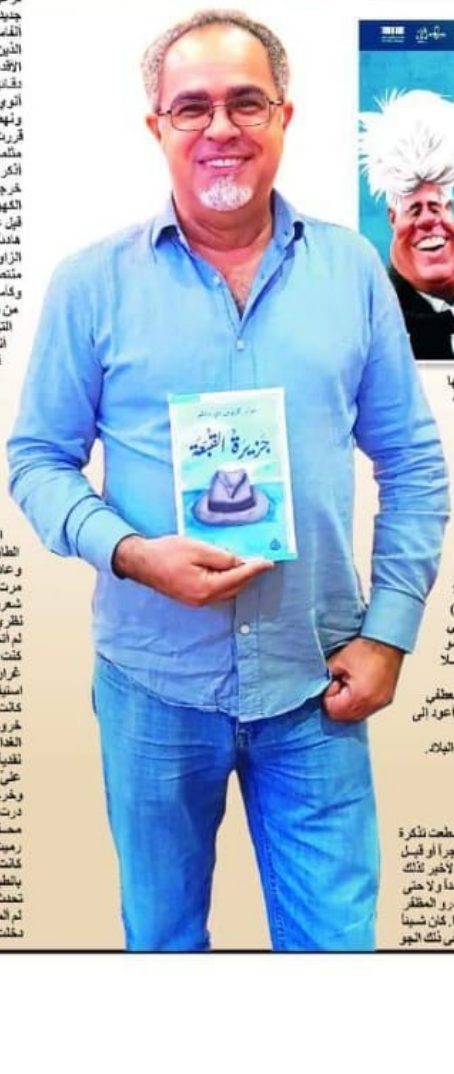

لخشيتي من ان تداهمني الأفكار نفسها التي اخرجتني باكياً من المقبرة. دخلت بريدي الالكتروني ووجدت بانتظاري من ضمن رسائل أخرى واعلانات ودعايات، رسالة من صاحبي الشاعر المصري أحمد يماني، يخبرني فيها بأنه مر اليوم بتجربة غريبة عن الموت، ليس هنا مجال لذكرها وسيقص علي حكايتها ما ان يراني، وفي الوقت نفسه يرسل لي قصيدة يطلب رأيي فيها كتبها من وحي الحادثة التي يرجل روايتها لي (وبعد ان احسني كاس نبيذ من الفنينة التي جلبتها له من شمال اسبانيا في سفرة أخيرة) يقول القصيدة بعنوان (الجنازة) وهي التالية :مات تشيمو هذا الصباح. تشيمو ليس صديقي. لكنه مات. كان يتحدث بلا انقطاع كمن يسدد ديناً قديماً لكلمات التي على وشك أن تهجره. غداً سأليس مطلق الأسود وامضي الى الجنازة وعندما اعود الى البيت سابتسم لنفسي. اليوم مات تشيمو؛ احد معارفي ربما انا الم اعد غريباً في هذه البلاد.

التربية السينة

كان ذلك ليلاً، في وقت متأخر، ربما قطعت تذكرة دخول صالة السينما على دور الواحدة فجراً او قبيل ذلك بقليل. ما اتذكره هو انه كان الدور الأخير لذلك اليوم. قررت أن امضي توحدي، لم ادع احداً ولا حتى صديقتي العائشة لأفلام الإسبانية بسبب المقاهر والتي تركتها في شقتي غاطسة في نومها كان شيئاً ما دعاني للخروج مشياً من البيت في تلك الجو الماطر، قاطعاً جادة غران بيا، مروراً بساحة إسبانيا، قبل ان اداف في الشوارع الخلفية للبارات المنتشرة هناك والتي تسمى بالكهوف، تشبهاً او تيمناً بالاسمان قبل الالف السنين. بين هذه الكهوف الغاصة بالناس، هناك سينما صغيرة، قطعت للنفسي تذكرة بالصف الاخير وانتظرت لمدة قليلة في احد البارات المجاورة لشرب بيرة قبل دخولي لرؤية فيلم يبدو المظفر المعنون (التربية السينة). كنت أرتشف من كاسي متاملاً من زاويتي الباقطة الكبيرة التي تعلن عن الفيلم، في تلك اللحظة احسست بها تمسني بدفعة خفيفة وتهرول خارجة من البار. كانت تلك الفتاة نفسها التي لمحت وجهها المتمش حال دخولي وابتسمت لي دون مناسبة. اقتربت مني وضربت بي بشكل قصدي. فكرت بكل شيء الا انها تكون قد سرقتني. ولكني رايتها تخرج من البار مهرولة. رايت الآخرين يرقبونني بعيون حمارة وسمعت أكثر من واحد منهم يقول لي: لا تتركها تهرب. لقد سرقت محفظتك !الحقيقة أن شعوراً غريبا لم يطرأ عليّ سابقاً أبقاني هادئاً بلا حراك، التحرك الوحيد كان لبدي وهي تقترب الكأس من فمي لأعاود الشرب. كان الجميع في وجوه، استغراب او ربما فضول اكبر. حسناً فكرا بحالتي وقلتو ا بي مس من الجنون، حتى سمعت تعليق واحد منهم (بالطبع لم اعلق على أية كلمة) قائلاً بما ينبيه اكمال جملة سبق وان تداولها معهم: لا بد انه واحد آخر من أولئك !لم التفت له ولم اسأل عن أي شيء يقصد ولا من هم أولئك الذين حشرني بينهم. تركت قطعة نقدية على الطاولة ثمن البيرة، زررت معطفي وخرجت دون ان ارفع عيني.

قرب السينما مددت يدي نجيب بنطلوني الخلفي لاتاكد للمرة الأولى من اختفاء محفظتي حقاً.

بقيت خمس دقائق على بدء الفيلم، اكتشفت أنني قد وضعت بطاقة دخول السينما في صفحة كتاب حملته معي، اقتربت من البوابة وقررت الدخول لرؤية الفيلم. بحساب بسيط فكرت ان ابلغ الشرطة صباح اليوم التالي، طالما ان الوقت متاخر وان يجدني نُفذا الآن، ثم ان أقصى شيء سأخسره القليل من النقود، بطاقات تعارف وهويتي الشخصية. محيت من ذهني كل ما جرى قبل دقائق وركزت انتباهي على تفاصيل الفيلم.

في الصالة لم تكن سوى أفراد لا تتعدى اصابع اليد الواحدة. اتخذ كل منا مكانه في زاوية بعيدة عن مقاعد الآخرين. مر الفيلم وكنت اتابع تفاصيله بلا مبالاة. الحقيقة أنني يجب أن اعترف بأنني لم اتابع الفيلم اطلاقاً، حتى انني بعد كل هذه السنين لا اتذكر ما يدور الفيلم. وسط الضوء الخافت للصالة، طرا الخاطر ي أنني قد مررت بهذا الحادث في سنوات ماضية، الفرق انني اليوم في مدريد والحادثة القديمة حصلت معي في بغداد. لكن رد فعلي في بغداد كان مختلفاً تماماً. عندما اقترب مني السارق (كان رجلاً وليس امرأة) وانا قرب سينما أطلس، ظننت به قد ضل طريقه ولا بد انه يقترب ليسالني عن مكان معين. ولكن ما ان أصبح في مواجهتي حتى شعرت بيده تتشكل ما يشبه سكين ليخزني بها في رقبتي، بتأثير الضربة الحتيت وكدت اسقط، عندها ادخل الحرامي يده في جيب بنطلوني الخلفي وحمل محفظتي وجرى مهرولاً في الشوارع الخلفية لبغداد القديمة. متر نحاً قمت على قدمي واحسست بأكثر من واحد يساعدني ويجري معي للحاق بالسارق. كنا تركض في البداية اكثر من خمسة، تكاثروا لعشرة، قبل ان اشعر بنفسي وكاننّي محاط بكل ناس الشارع جرت في اكثر من شارع فرعي واتجاه ولم اعثر على أي أثر له، حتى وجدت نفسي من جديد امام صالة السينما. جلست عند البوابة لاسترجع انفاسي، ثم شعرت بحركة أقدام اخرى تعود. قلتت بهم اولئك الذين حاولوا مساعدتي، ولكنني لم انتبه لاي وجه اعرفه. الأقدام تسارعت وهي تدخل صالة العرض حيث لم يبق سوى دقائق على بدء الفيلم. راني مراقب الصالة وسالني ان كنت أنوي الدخول، فأفلم قد ابتدأ. نظرت له، اكدت على ساعدي ونهضت للدخول دون ان افكر بأية عاقبة معينة، كنت قد قررت الدخول وحسب.

مثلما حدث معي في بغداد (نسيت حتى عنوان الفيلم) لم اعد أذكر شيئاً من فيلم المظفر ولا تفاصيل ما جرى لي بعدها. خرجت من صالة العرض ومضيت في طريقي ما بين مقاهي الكهوف مرة أخرى. دخلت واحداً منها لاشرب كأسي الأخيرة قبل عودتي للبيت. وقفت قرب الطاولة وطلبت بيرة. كان البار هادءا ولم ار أحداً قربي. بعد لحظات سمعت اصواتاً من الزاوية البعيدة، لمحت شخصين بثلاثينيّ، ربما عاشقان في منتصف الليل يرغبان بالعزلة والكأس. مضيت بتاملاتي وكأسي حتى سمعت صوت امرأة تقترب من الطاولة وتطلب من النادل شيئاً ما. التفت ورايتها، كانت هي نفسها، الفتاة التي سرقت محفظتي. ركزت على وجهها المتمش وحزرت أنها لا تتعدى العشرين، بملابس هيبية وعشرات القلوب في أذنيها معلاة بحلق مختلف الألوان. ادركت انني انظر لها فابتسمت لي وغضت النظر. كنت ما ازال انظر لها بتركيز، حينذاك انتبهت لتبدل في ملامح وجهها وعودتها للنظر بوجهي. بقينا ننظر لبعضنا دون اي تحرك ولكنني بدون كلمات افهمتها ما لم افكه سابقاً.

لم تغمض عينيها ولا جاءت بحركة، بل العكس، اقتربت اكثر مني وأشارت لي دون أية كلمة ان ادعو ها لكاس على حسابي. اشرت للنادل الذي وضع كاس بيرة كبيراً أمامها. ودون انتظار. رفعت كأسها وجرعته دفعة واحدة، مسحت فمها ورايت تعابير امتنان على وجهها. وضعت الكاس الفارغة على الطاولة، زررت معطفها وهمت بتركي. لكنها توقفت للحظة وعادت لتخلف. اقتربت مني وكنت أظن أنها ستحدثني ولكنها مرت من جانبي، مستني بنفس طريقتها الاولى، او هذا ما شعرت به وخرجت من البار دون ان تركض حتى اختفت عن نظري. لمحت في الزاوية الرجل المرافق لها ما زال ينتظر.

لم أتحرك وبقيت ماسكاً بكأسي. لم تمض سوى دقائق حتى كنت قد عدت في طريقي مروراً بساحة إسبانيا، قاطعاً جادة غران بيا لأصل شقتي وانام بكل طمأنينة حتى ساعة استيقاظي على صوت صاحبتي.

كانت قد نهضت قبلي، غسلت وأفطرت وعندما حانت ساعة خروجها للعمل، سألتني ان اقرضها بعض النقود لشراء الغداء عندما تعود ظهراً. فتحت عيني ورايتها تلوح لي بورقة نقدية وهي تغيرني: سحبتها من محفظتك، لم يبق لي وقت، على الاسراع للوصول لمحل عملي. ثم انحنت وقبلتني وخرجت.

درت برأسي الى حيث أشارت صاحبتي، ووجدت ما يشبه محفظتي على الكرسي فوق بنطلون الليلة الماضية الذي رميت به على الكرسي. ليس هذا مجال لتخمين أي خدعة. كانت محفظتي نفسها، في بغداد لم احظ بنهاية مشابهة بالطبع. لا اعرف من تكرني عن تلك الأشياء المرعبة التي تحدث لنا دون أن نفقه تعليلاً مناسباً لها.

لم المس المحفظة ليومين، بقيت مرمية في مكانها وكنت كلما دخلت غرفة النوم، اتأملها كمذنب ينتظر القصاص.

www.palms-news.com